صرخ أحدهم: 'إنّني مريض' وقال آخر: 'إنني عاجز واهن'. [فسألناه:] 'ما هذا الذي تقولونه؟ لماذا أنت مريض ولماذا أنت عاجز واهن'؟ [فسألونا:] 'ومن أنتم'؟ [قلنا:] 'نحنُ ضيوف'. [فقالوا:] 'وكيف حدث أن وقعتم في قبضة هذا الخبيث الماكر؟ لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فهو الأعلى! إنه غول آكلٌ للحوم البشر؛ أعمانا، وهو الذي ينوي أن يفترسنا'. [سألنا:] 'كيف استطاع هذا الغول أن يفقدكم بصركم!؟' فردّوا قائلين: 'سرعان ما سيخضعكم لمثل هذه العملية'. [سألنا:] 'كيف سيعمينا'؟ [قالوا:] 'سيأتيكم بطاسات مليئة بالحليب ويقول: «لقد أتعبتكم الرحلة. إليكم بهذا الحليب. اشربوه. وما إن تشربوه حتى تصبحوا مثلنا'. فقلت لنفسي: 'الحيلة هي الوسيلة الوحيدة للفرار'. وهكذا حفرتُ ثقباً وجلست فوقه. بعد ساعة من ذلك، دخل الغول الماكر بطاسات الحليب. أعطاني واحدة منها، وقدّم واحدةً لكل رفيق من رفاقي [وقال:] 'لقد وصلتم الآن من البر وأنتم عطاش. خذوا هذا الحليب واشربوه، فيما أشوي العشاء'. أخذتُ الطاسة ورفعتها إلى فمي، لكنني سكبتها بالثقب الذي كنت قد حفرته صرختُ: 'آخ! لقد ذهب بصري وأنا الآن أعمى'. وضعتُ يدي على عيني وبكيت وانتحبت. ضحك وقال: 'لا تخف'. رفيقاي شربا الحليب وعميا. وللحال قفز وأغلق باب المغارة. اقترب مني ولكزني في أضلاعي. إلا أنّه وجدني نحيلاً بعض الشيء، لا لحم على عظامي. ولكز شخصاً آخر، ورأى أنّه سمين. فسُرّ، ثم ذبح ثلاثة خراف، وجرّدها، وأتى بثلاثة سفافيد، وشكّ الخراف فيها ووضعها فوق النار وشواها. وأعطى بعضاً منها إلى رفيقيّ وشاركهما الوجبة. بعد ذلك أتى بزق مليء بالخمر وجرعه، ثم تمدد على وجهه وشخر.

قلت لنفسي: 'إنه ينام نوماً عميقاً. كيف أقتله؟' عند ذاك ذكرتُ الأسياخ، أخذتُ منها اثنين ووضعتُهما في النار. انتظرتُ حتى حَميا واحمرّا لشدة الحماوة. ثم نهضتُ، واستجمعتُ قواي، وقفتُ منتصباً على قدميّ؛ رفعتُ السيخين الحديدين واقتربت من ذلك الخسيس. شككتهما بعينيه، واضعاً كل ثقلي عليهما دافعاً بهما في عينيه. نومه المريح اضطرب بقوة؛ هبّ واقفاً على قدميه؛ حاول أن يمسك بي برغم عماه. هربتُ منه. كنت لا أزال داخل الكهف؛ طاردني. صرختُ بالعميان في الكهف: 'ماذا يجب أن نفعل بهذا الوحش'؟ أحدهم صرخ: 'سعيد، اصعدْ الى إفريز تلك النافذة؛ هناك تجد سيفاً ماضياً. هاته؛ تعال به إليّ، وسأقول لك ما تفعل'. تسلقتُ إفريز النافذة، أخذتُ السيف وأتيت به الى الرجل. 'خذه' قال لي 'واضربه في جذعه الأوسط سيموت في الحال'. لحقتُ به. كان منهكاً بسبب جهوده في البحث عن الرجال العميان ليفتك بهم. تقدمتُ، ضربته بالسيف في جذعه الأوسط، فانشق اثنين. صرخ بي، وتوسل إليّ: 'بما أنك تقصد قتلي اضربني الضربة القاضية'. تهيأتُ كي أضربه ضربة ثانية، حين صرخ بي الرجل الذي دلني على السيف 'لا تضربه الضربة الثانية! إنه لن يموت؛ إنه سيعيش ويحطمنا'. أصغيتُ لما قاله ولم أضربه. وقضى الوحش؛ ثم قال لي الرجل 'افتح لنا الكهف، واتركنا نذهب، إن الله سيساعدنا وسننجو من هذا المكان'. فقلت له: 'إننا لم نعد في خطر. إننا سننجو حقاً. دعونا نذبح بعض الخراف ونشرب بعض الخمر. إنّ البر بعيد جداً من هنا...'».

وهكذا فقد اهتدينا أخيراً إلى السيف الذي ذبح الغول. ومن نافل القول إنّ مغامرة سعيد تشي بقدر كبير من اللامعقولية السرديّة، مثلها مثل العديد من نظيراتها من الحكايات الشعبية، وإن كانت تتحلى بشيء من التوازن: فمعاناة الغول تصبح ممكنة جراء شلّه لنفسه بالخمر، بعد أن شلّ ضحاياه بالعقار السحري[1]؛ والغول يَعْمَى لأنّه أعمى ضحاياه. ليس مشهدُ الإصابة بالعمى مجانياً دون مسوِّغ في سياق القصة: فالعملية لا تقتل الغول، بل تمثل محاولة لقتله؛ إنها توحي بأن حكاية سعيد نفسها تمثل دمجاً بين تقليدين: سملِ عينِ عملاقٍ من أكلة لحوم البشر، وقتله بسيفٍ. وهكذا فقد باتت الغاية المتوخاة من احتياج الغولة الى طعنة ثانية من «تأبط شراً» أمراً مفسّراً.

وفي المجابهة بين سعيد والغول الآكل لحوم البشر قد نستطيع أن نرى ذلك النوع من المشاهد الكوميدية المتسمة بالخشونة المفرطة التي كان هوميروس أَمْيَلَ الى تجنبها، لحرصه على اختزال العناصر الخارقة للطبيعة وغير المعقولة إلى الحدود الدنيا في قصصه المعروفة باسم السيكلوبيات. وأنا أقترح أنّ قصة سعيد تتضمن رواية واحدة على الأقل من تراث بديل كان متوفراً لهوميروس ومألوفاً لدى جمهوره. وإذا أخذنا بعين الاعتبار مشهدَ تأملِ أوديس الذي سبقتْ ترجمتُه ومناقشته، فإنّ هذا الحادث يمثل نقلة زائفة، وقد تم تسليط الضوء على نماذج أخرى مماثلة في هذا المقطع من القصيدة.

ويبدو أنّ موضوعة الأخطار الكامنة في الإجهاز على غول بالسيف قد كانت موضوعةً ملائمة للتراث العربي ومحصورةً به، وكانت تطوراً محلياً أصيلاً يمكن التدليل على أنه كان سائداً في القرن السادس الميلادي، هذا إذا كانت قصيدةُ تأبط شراً عن الغولة الآكلة لحم البشر موثوقةَ النسبة (وهذا أمر لديّ بشأنه بعض التحفظات).

وهذه الطعنة الثانية التي تعيد الغول إلى الحياة بعد موته بفعل الطعنة الأولى، نجدها أيضاً في الملاحم الشعبية العربية. ففي كتاب **الملحمة العربية**، الجزء الأول، كامبريدج ١٩٩٥، ص: ٥٣) يقول ليونز (Lyons): «من الممكن في حالات محددة، بحسب خرافةٍ مألوفة، قلبُ سيرورات الموت الطبيعية رأساً على عقب. فعنتر يقتل مارداً على شجرة ويقال له إنّ من شأن

---

١ ـ يرى پيج (١٩٥٥: ٦ ـ ٨) أن قصة إسكار العملاق مقتبسة من قصص شعبية أخرى. فالنظيرات العربية المأخوذة من **العجائب والف ليلة وليلة**، باستثناء قصة السندباد، تصرح بأنّ العملاقَ يُسكر نفسه بنفسه. وهذا أيضاً هو ما يفعله شيخُ البحر. وقد يكون تناول الخمر تأكيداً للهوية غير الإسلامية لهذه المخلوقات. ومهما يكن الحكم بشأن صفة الآكريتون (الخَضِرّ) التي يضيفها هوميروس على الحليب فإنّ علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الاحتمال القائل بأنّ العملاق الاغريقي قد بادر في وقت من الأوقات الى إسكار نفسه أيضاً.

ضربة ثانية أن تعيد المارد إلى الحياة؛ وذلك شبيه بقوة ياقوت، إله السحر المقطوع الرأس، الذي عاد رأسه إلى الالتحام بجسده بعد امتلاء الغرفة بالدم. غير أنّ مثل هذا التحدي الصارخ لنظام الطبيعة وما يرتبط به من أخلاق، لا يمكن السماحُ له بالنجاح كما هي الحال مع سيزيف. فالفضيلة الدينية المتجسدة بالقديسين أو الأبطال يجب أن تنتصر آخر المطاف على سائر القوى الأخرى، المرئية منها وغير المرئية؛ وعلى الرغم من أنّ السحر وما يرتبط به من عناصر تضفي ألوانها على طيف مسار القصة، فإنّها لا تستطيع أن تحجب هذه البساطة الأساسية».

*

هل نستطيع أن نقع على حدث رئيسي آخر يُقتل فيه الغولُ بالسيف، حدثٍ ينتمي الى الشرق الأدنى، لتأكيد هذا الزعم؟ الحقّ أنّ كتاب ده ده قورقوت (Dede Korkut)، مع حكاية البطل باصاط (Basat) والعملاق آكل لحوم البشر تيپه غوز (Tepegöz) ليشكّل حدثاً من هذا النوع: «إن كتاب ده ده قورقوت مجموعة قصصية تضم اثنتي عشرة قصة تنتمي إلى العصر البطولي لقبائل الأوغوط التركية. [...] ولنا أن نفترض أن هذه القصص صيغت بشكلها الحالي بعد بداية القرن الثالث عشر[...] فده ده قورقوت، الذي سُمي الكتاب باسمه، هو عرّافُ قبائل الأوغوط ورئيس أساقفتها وشاعرها الشعبي[...] ولغة هذه القصص نثر مزركش بمقاطع شعرية إيقاعية ومتجانسة ومسجوعة أو مقفاة من 'البوح' (Söyleme). أما مستوى اللغة فمتفاوت؛ فهو عالي الشاعرية جليل حيناً، وعامي مبتذل حيناً آخر»[1].

الحكاية أطول من أن نستطيع تقديمها كاملة. ولذلك سيتم الاكتفاء بإيراد الخطوط العريضة للعقدة[2]:

١ ـ ينشأ باصاط تحت رعاية أحد الأسود. ٢ ـ يقوم راعي القبيلة أوروظ، والد باصاط، باغتصاب حورية تطلب منه أن يعود خلال سنة. ٣ ـ وبعد سنة يقع بصرُ الراعي على «صُرّة غريبة مشعّة على الأرض» (موندي، ١٩٥٦: ٢٨٣)، فيرجمها بالحصى، فتكبر بعد كلّ إصابة. ٤ ـ يصل بايوندار خان، الزعيمُ الأكبرُ لقبائل الأوغوظ، الى المكان، فيقوم مع رجاله برفس الصرة التي تكبر بعد كل رفسة، فتُفتح الصرة، وتتكشّفُ عن طفل ذي شكل إنساني بعين واحدة في أعلى الرأس [ومن هنا الاسم تيپه غوز الذي يعني صاحب العين الموجودة في أعلى الرأس]. ٥ ـ يربّي أوروظ الطفلَ مع ابنه باصاط، ولكنّ تصرفات الطفل العنيفة تجبر أوروظ على طرده من البيت. ٦ ـ تزوّد أم تُيبه غوز الحورية ابنها بخاتم مسحور يحميه من كل أذى. ٧ ـ يتحول تيپه غوز الذي بات وحشاً يأكل لحوم البشر إلى لصٍّ قاطع للطرق، ويشنّ هجوماً على قبائل الأوغوظ فيقتل شقيق باصاط. ٨ ـ يتم إيفاد ده ده قورقوت، شاعرِ القبيلة وعرّافها، للتفاوض مع تيپه غوز، ويجري الاتفاق على تقديم رجلين وخمس مئة رأسٍ من الغنم طعاماً يومياً إلى تيپه غوز، وعلى أن يقوم اثنان من الرجال بأعمال الطبخ. ٩ ـ ما إن يعود باصاط من رحلته حتى يسمع عن تصرفات تيپه غوز وعن مقتل أخيه، فيقرر الثأر. ١٠ ـ يهاجم باصاط تيپه غوز، ولكنه يفشل، ويقع في أسره. ١١ ـ يحاول باصاط معرفةَ نقاطِ ضعفِ تيپه غوز من الطبّاخيْن اللذين يعملان عنده، فيشير أحد الطباخين إلى عين العملاق[3]، فيبادر باصاط إلى تسخين سيخ يقحمه فيها. ١٢ ـ يصرخ تيپه غوز من الألم، ويَختبئ باصاط في مغارة بين القطيع، فيذبح كبشاً ويسلخ جلده ويستخدمه تمويهاً. ١٣ ـ يقدِّم تيپه غوز خاتمه السحري الى باصاط، لكنّه ينقضّ عليه في هجوم أحمق وغير موفق، فيقع الخاتم من إصبع باصاط. ١٤ ـ يحاول تيپه غوز حبس باصاط في أحد الأبراج، ولكنّ قيام هذا الأخير بتلاوة الشهادة المعبِّرة عن الإيمان يفضي إلى فتح الأبواب كلها. ١٥ ـ يحاول تيپه غوز خداع باصاط بالتحايل عليه؛ «قال تيپه غوز: 'هناك في ذلك الكهف سيفان، أحدهما مغمد والآخر مجرد، وهذا الأخير المجرد سيقطع رأسي، هاته واقطع رأسي'». وهذا السيف «مربوط بسلسلة... في حركة مستمرة» يقطع كلّ شيءٍ يلامسه الى نصفين. يحصل باصاط على السيف. ١٦ ـ يلعن تيپه غوز باصاطاً على عماه، فيكشف باصاط عن هويته ويجبره على الركوع ثم يذبحه بسيفه المسحور.

في بعض الملاحم تؤدّي الطعنة الثانية الى عودة الغول الى الحياة

ثمة في هذه الرواية عدد كبير من أشكال التضارب وعدم الاتساق. فمسلسل الهروب طويل بصورة غير اعتيادية (إذ يُقحم باصاط في أربعة أسباب للنجاة: فرو الغنم، والخاتم، والبرج، والسيف). فواقعة الخاتم المسحور

---

١ ـ ج لويس، **كتاب ده ده قورقوت**، هارموندزورث ١٩٧٤، ص: ٩ ـ ١٤.

٢ ـ إنّ الإيجاز التالي مدين كثيراً للتحليل الذي قدمه ك. موندي في مقال بعنوان: فوليم وتيپه في دورية **BSOAS** العدد ١٨ (١٩٥٦)، ص: ٢٨٣ ـ ٢٨٧.

٣ ـ وهذا يذكّرنا بالنصيحة الموفقة المتعلقة بالسيف (والخ) التي تلقّاها سعيد من ناصح مجهول الاسم، كما يشكل تعديلاً ذكياً لعملية حصول البطل على المعلومات من مساعدي العملاق لأنّ طباخي تيپه غوز من أفراد قبيلة باصاط